# فنانون عن لبنان

بقلم قيصر الجميل

داود القرم ، حبيب سرور ، خليل الصليبي : ليست مهمتي ان اخبر الناس اين ولدوا ، ولاكيف ترعرعوا ، ولا اين وكيف ومع من عاشوا ، ولا عن الطريق التي اوصلتهم الى اوروبا ، حتى اني اجهل اسم معلمي داود القرم وحبيب سرور ، ولولا صداقة متينة ربطتني بخليل الصليبي ، ايام تتلمذت عليه ، لما عرفت شيئاً عن نشأته .

●

كان لاسم داود القرم عندنا في الجبل ، صدى الاسماء الكبيرة . فهو أحد اعمدة الفن : هو مصور القديسين ، ولوحاته مزيج من طهر وحب وتقى وايمان . وقد كان لهذه الفضائل المقام الأول عندنا ، فكان لداود القرم المقام الأول . كانت اللوحة تهمه بمجموعها ، كما كانت تهمه بدقائقها ، فالزر وعروة الزر ، كانت تسترعي انتباهه ، فيشتغلها بنفس العاطفة ، وبمقدار الحب الذي كان يشتغل به اهداب العيون والشفاه ،

تسيطر على لوحاته ، الرصانة والاتزان ، في لمسة ناعمة ، دقيقة ، والوان هادئة . لا ضجيج ، ولا صياح . ولا بطولة رومنطيقية . بل حكاية يوشوشها بجميع تفاصيلها . بوداعة الطفولة وبسذاجة دينية . لاسر يكتمه . ولاشهوة تفضح في كيانه . حتى في دروسه العارية التي اتيحلي مشاهدتها في منزل ولده ، صديقي الشاعر شارل قرم ، فشعرت امامها بتجرد الفنان ونبل تفكيره . واحسست بان اليد التي حققت هذه الدروس هي يد نقية طاهرة ، وان الرأي الذي سيّرها ، صقله الفن ، وهذبه الدين ، فسما به ، الى ما فوق المادة ، الى الروح . لا بهلوانية تكنيكية في لوحاته ، فهي الطريقة المدرسية الناعمة فلا أحمر ، ولا أزرق ، ولا اصفر ، يعلو ضجيجها فوق غناء الاوركسترا المتزن ، الهادىء ، بل صلوات ، يرفعها المخلوق الى الخالق ، بايمان حي ، وقلب نقي ، واخلاص وتجرد .

اما حبيب سرور فقد عرفته عن كثب : فهو واقعي ، احب الطبيعة بظاهرها ، فلم يتغلغل الى اعماقها . واكتفى بما كانت تقوله له فلم يتعرف الى اسرارها . متين الرسم ، واثق اللمسة ، تساعده هذه البراعة على التقاط الهنيهة العابرة في الوجوه ، فيضفي عليها مسحة من الرجولة . ليس في لوحاته الدينية تجرد القرم ، بل ظل حبيب هنا ، بيننا . اتخذ نماذجه من حواليه ، واكتفى بتصويرهم كما هم ، كما يراهم . وكما نراهم نحن ، اشكالهم تستهويه ، والوانهم تشغله ، هذا الحاجب الكثيف الذي يغطي العين الصغيرة السوداء ، وهذا الأنف الرابض فوق الشاربين ، واللحية المتسكعة التي تخفي كل شيء تحتها . فلم يتطفل ، ولم يسأل ، بل اكتفى بشكل ولون .

اهتم حبيب كثيراً بالطبيعة الصامتة ، وله لوحات ، تداولتها الأيدي ، والألسن والاقلام ، فدراقاته ، وحجاله ، وسلال الصبير تشهد جميعها ببراعة حبيب التكنيكية ، وامكانياته الكبيرة . ولو عرف ، ان يضفي عليها ،

الارواح في المطهر – لداوود القرم

حالمة – لحبيب سرور

هذا الشيء الذي نحسه دون ان نعرف له اسماً ، هذا الشيء الذي هو كالعطر للزهرة ، والنغم للوتر ، والحب للانسان ، لكانت هذه اللوحات تعد من الروائع العالمية.

واما خليل الصليبي ، فكان يفضل اللون على الرسم اي انه كان لا يحجم عن تضحية الشكل في سبيل لون احبه . تأثر بالمدارس الأوروبية الحديثة ، بالمدارس الأميركية الناشئة ، من سارجنت وكارولوس دران ، ولم اسمعه مرة يتلفظ باسم التأثريين ، بالرغم من تأثره الظاهر برنوار. احب خليل . الوجوه ، واحب منها الشقراء ، لما في بشرتها من الوان دافئة ، وانعكاسات كان يطرب كلما وفق الى تحقيقها. لم يتعرف الى القديسين ، ولم اشاهد بين الواحه سوى اثنين او ثلاثة من المناظر الريفية . كان خليل يعنى باللمسة ، عناية بالغة ، وغنى اللون ودفئه ، فهو في لوحي هليوبوليس ، قد افرغ الالوان نقية من انابيبها ، فصور الانوار الملونة وانعكاساتها على الرخام والسجاد ، بجرأة كبار المعلمين ، واجمل ما ترك لنا خليل ، صور امرأته الشقراء ، فلورآها ونوار لهز بمينه مهنئاً .

فضل خليل الالوان الشفافة الزاهية ، على الألوان المتينة العميقة ، حتى في وجوه الرجال ، وتلاعب بمناخ ألواحه ، فانحدر باللون البارد الى الأزرق ، وعلا باللون الدافيء الى البرتقالي ، وغالباً ما كان يضفي على لوحاته شيئاً يشتهيه ، فلا يستهويه ، غموضاً في النظرة ، وتيهاً في اتجاهها ، كأنها تحلم بالمجهول ، او تصغي الى وشوشات حبيب ، او ترتعش لفكرة تراودها . ولكنها حالات نادرة ، عابرة ، فذكرياته عن سارجنت ، كانت ملحة قوية ، فيفاخر بلباقته ، كأن يقول : هذه الاصبع ، هي نتيجة لمسة واحدة . وهذه الطية على الزند ، رسمت ، بضربة عفوية ، فالتكنيك ، كان يغريه اكثر من كل شيء آخر . ولو اعطي خليل الصليبي ، عمق التفكير ، وراحة البال ، ولو انصرف الى فنه ، كما انصرف اليه حبيب سرور ، لأغنى التراث الفني في لبنان ، لكنه الرغيف كان يفر منه ، فتضطر امرأته الى العمل حتى تؤمن اللقمة ، ومع هذا عندما كان يتاح له الانفلات ، والاستسلام الى ريشته والوانه ، يحقق الواحاً ، هي متعة للعين ، وطمأنينة للعقل ، يسبغ عليها ألواناً من غنى وتنوع ، بمناخ معتدل ، تتآلف فيه الدفء والطراوة ، الموهبة والذكاء .

عاش خليل في شقيف بطلون ، بين جبال يلبسها النور من الحلل ، ما لم يحلم به سليمان ، واودية ، ترمي الظلال عليها اسراراً اعمق من الحياة ، يربي اجمل الأزهار ، ويبذل اقصى العناية في توضيب تربتها ، فلم ار ، حتى في باريس زهرة بخور مريم ، بجمال اللواتي رأيت عنده في عالم مسحور ، بين الزهر والشجر ، في قرية من اروع قرى الجبل ، ولم ر بين صوره سوى قروية واحدة ، وكأن جمال الازهار كان يرجف يده ، فلم يصور واحدة منها .

**قيصر الجميّل**

لبناني من بطلون – لخليل الصليبي